العنف معاناة حقيقية خلف الجدران (ناصر السهلي)

قبل 5 سنوات وصل إلى القارة الأوروبية أكثر من مليون مهاجر/لاجئ، أغلبيتهم من السوريين والفلسطينيين الذين هُجروا تحت وقع الحرب. نسلط الضوء على واقعهم ومستقبليهم في ألمانيا واسكندينافيا

سوريو اللجوء

5 أعوام في ألمانيا واسكندينافيا... أرقام وحقائق

ناصر السهلي

على وقع موت 70 إنسانا، في أواخر أغسطس/آب 2015، اختناقا في شاحنة تهريب على أحد طرقات النمسا، بعد عبور المجر، كانت أوروبا تبدي تعاطفا للسماح للسوريين وغيرهم بالقدوم إليها. في خلفية الحادث، اختار رئيس وزراء المجر المتشدد، فيكتور أوربان، سياسة عدوانية ضد عشرات الآلاف ممن عبروا طريق البلقان نحو شمال القارة، فأغلق الحدود ومنع المتكدسين في عاصمة بلده من التوجه حول وجهتهم الأخيرة، التي لم تكن بودابست. اختار السوريون والفلسطينيون-السوريون التوجه نحو ألمانيا، وبدرجة ثانية السويد، لأسباب تتعلق بسهولة لَم شمل الأسر هناك، حيث لم يكن الجميع خاطر بزوارق الهرب بحرا من تركيا عبر ايجه، ولاعتقاد كثيرين أن ألمانيا ستكون مع السويد أكثر ترحيبا من دول أخرى، لكنها أبدت منذ البداية توجسها من ذلك التدفق الكبير. سبقت هؤلاء الواصلين إلى ألمانيا، بدءا من 10 سبتمبر/أيلول 2015 حملة تشويه غير مسبوقة، وقد كشف لاحقا عن الدور الروسي فيها، من خلال بث الأخبار المزيفة عنهم، لشيطنة الباحثين عن نجاة لهم ولأسرهم.

ميركل... «نحن قادرون»

وسط صخب سياسي وإعلامي ومجتمعي-حقوقي حول ضحايا الهجرة واللجوء، أطلقت المستشارة الألمانية، أنجيلا ميركل، جملتها الشهيرة في مؤتمر صحافي يوم 31 أغسطس/آب 2015، «نحن قادرون»، وهي قصدت بذلك قدرة بلدها على دمج القادمين الجدد نحوها. في محطة فرانكفورت كان الألمان يتدفقون لتقديم أية مساعدة للعائلات التي أنهكها طريق طويل من اللجوء. وبقيت مراهنة ميركل على جملتها صامدة، رغم العواصف السياسية والإعلامية التي لاحقتها كما لاحقت القادمين الجدد إليها. في الإحصائيات الرسمية الألمانية، استقبل البلد خلال أيام نحو 890 ألف إنسان، أكثر من نصفهم ممن قدموا من سورية (سوريون وفلسطينيون)، بالإضافة إلى عراقيين وغيرهم.

الواقع كما هو

بعد خمس سنوات، تطرح أسئلة كثيرة عن الواقع الذي بات عليه من وصل إلى ألمانيا. وبحسب دراسات عدة، ومن بينها دراسة معهد دراسات سوق العمل الألماني، فإن سياسة المستشارة ميركل نجحت، ليس فقط في تمرير «نحن قادرون»، بل في طرح شعار «لقد تمكنا من ذلك». فعلى الرغم من أن من وصل إلى ألمانيا لم يكن يعرف لغتها وثقافة سوق عملها، يبدو أنه وبعد 5 سنوات، نجحت برلين في دمج أغلبية القادمين إليها في المجتمع. وتفيد الأرقام بأن نحو 50 في المائة منهم أصبحوا اليوم جزءا من سوق العمل الألماني.

في العاصمة برلين، على عكس الضواحي والأرياف، يمكن ملاحظة كثافة التواجد السوري، حيث أصبح تقريبا لكل جالية لاجئة نقطة تجمّعها الخاصة بها. في ضاحية «نيوكولن»، ذات الأغلبية المهاجرة، يمكن القول إن سونن آلي، الذي كان يسمى سابقا شارع العرب، تحول رويدا رويدا خلال السنوات الخمس الماضية إلى «دمشق مصغرة». ففيه تنتشر مخابز وحلويات دمشقية، ومقاه يلتقي فيها سوريون انتقلوا من قرى ومدن أخرى إلى برلين، ومن الملفت أن اللاجئين السوريين يفضلون برلين على غيرها «لأنك هنا تشعر بأنه مرحب بك، على عكس قرى شرق ألمانيا»، كما يذكر السوري ليث المصطفى لـ«العربي الجديد». وفي سونن آلي، وجدت أسرة السقا السورية، المنحدرة من حمص، مكانا مميزا لتنطلق منه مجددا بتأسيس «حلويات دمشق»، ويوجد لديها 3 فروع و25 موظفا.

صحيح أن مجيء رقم ضخم إلى بلد مثل ألمانيا منح اليمين المتشدد دفعة في الشارع، وحقق حزب «البديل لأجل ألمانيا» تقدماً في شعبيته، وانقلاب بعض من جاء لاجئا على أبناء بلده، محرضا عليهم في صفوف ذلك الحزب، إلا أنه في المقابل تبقى صورة مشرقة أخرى لنجاحات سوريين وسوريات في المستوى الدراسي، خصوصا بين فئة الشبيبة، مقارنة بعدد سنوات الإقامة. وفي مقابل تلك النجاحات، فإنه، وبحسب دراسات متخصصة أيضا، يبدو الألمان أكثر قبولا وترحيبا بمن وجدوا لديهم قابلية الاندماج والمساهمة في بلدهم. فالخبير الألماني فيليب ألكسندر أوستريوكز، رأى أنه بعد 5 سنوات كانت «العملية صعبة ومؤلمة»، لكنه يشعر أن بلده «نجح إلى حد كبير في دمج مئات الآلاف، لأن كثيرين من الألمان تدخلوا بأنفسهم لإنجاح عملية الدمج، فثمة أرقام تتحدث عن أن 10 في المائة من الألمان نشطوا بشكل طوعي للمساعدة أثناء أزمة اللجوء، وهذا يعني 8 ملايين إنسان، وهو أمر مثير للإعجاب».

المعهد الألماني لدراسة سوق العمل، «إياب»، رأى أيضا في تقريره الخاص بعد 5 سنوات، أن نجاح الدمج في سوق العمل كان لتعليم اللغة دوره الحاسم فيه. ويبدو أن «الاستثمار في تعليم اللغة وبشكل ملحوظ منذ دخول اللاجئين في 2015 إلى جانب برامج الدمج الأخرى ساهمت في الواقع في نجاح العملية، وما يثير الانتباه أن الإناث من اللاجئين والمهاجرين كان تمثيلهن كبيرا في عملية الاندماج»، بحسب التقرير، الذي يشير أيضا إلى أن إدخال 50 في المائة في سوق العمل يعتبر قصة نجاح، وهو ما يؤكده الخبير أوستريوكز بقوله إنه «نجاح كبير إذا ما أخذنا بالاعتبار أن القادمين إلى البلد عانوا من صدمات الحروب، ولم يكونوا يتحدثون الألمانية». ويبدو أن العامين 2018 و2019 شكلا أفضل الأوقات بالنسبة لاندماج السوريين. فبحسب خبير الدمج في معهد سوق العمل، البروفسور هربرت بروكر، فإن «اللاجئين من سورية تجاوزوا في اندماجهم وعملهم لاجئي البلقان في ألمانيا في تسعينيات القرن الماضي».

الوجه الآخر للعملية

رغم قصص النجاح، وتحول السوريين والفلسطينيين ـ السوريين إلى جزء من اللوحة العامة لمجتمعات الهجرة، إن في برلين أو غيرها من مدن ألمانيا، سجلت دراسات في شتوتغارت شملت 21 مدرسة مهنية، وجود مصاعب لغوية عند فئات غير متعلمة من القادمين الجدد. وانعكست كثافة الاستهداف الإعلامي للمهاجرين عموما على مزاج الألمان، خصوصا في القسم الشرقي منها، حيث تقدم الخطاب الشعبوي، وترافق ذلك مع تشديد أمني ألماني أكثر تجاه جماعات العنف اليميني المتطرف. لم تتراجع المستشارة الألمانية، ميركل، أمام معسكر المشككين في قدرة بلدها على دمج اللاجئين/المهاجرين، بل واعتبرت أنه «لا تسامح مع أولئك الذين يشككون في كرامة الناس».

آثار الهجرة

قرار ميركل، فتح الحدود أمام المهاجرين قبل 5 سنوات، فتح عليها جبهة من الاتهامات بـ«الخيانة» و«الغباء» وتوبيخ قادة حركة «بيغيدا» (وطنيون أوروبيون ضد أسلمة أوروبا)، في البداية، خصوصا يوم زيارتها لأحد معسكرات اللجوء في هايدناو بشرق ألمانيا.

مرت علاقة الألمان باللاجئين بمراحل مختلفة، أهمها تنامي الأخبار الزائفة عن السوريين، والتي تبين لاحقا أن أصابع روسية لعبت دورا فيها، كاتهام اللاجئين باغتصاب طفلة ألمانية. وجاءت «حادثة كولن» في ليلة رأس السنة (2015-2016)، باتهام اللاجئين بالاعتداء والتحرش الجنسي بحق نساء ألمانيات، لتحتل صدارة الحملة السياسية والإعلامية المعارضة لقدوم مئات آلاف الأجانب إلى البلد.

واستغل حزب «البديل» الواقعة لمصلحته، خصوصا تعميم أحداث معينة، كحادثة اعتداء يوليو/تموز 2016 على يد مراهق أفغاني مسلح بفأس على ركاب قطار في مدينة فورزبورغ، وجرح 5 أشخاص، وقيام سوري (27 سنة)، بتفجير نفسه وجرح 15 شخصا في أنسباخ.

وفي ديسمبر/كانون الأول من نفس العام، قام طالب لجوء مرفوض بقيادة شاحنة وسط جمهور سوق عيد الميلاد في برلين، وقتل 12 شخصا نتيجة حادثة الدهس.

على تلك الخلفية، سجلت ألمانيا أيضا تقدما لـ«البديل من أجل ألمانيا» بواقع 12,3 في المائة، ليصبح الحزب الثالث في البرلمان مع 94 نائباً.

587 ألفاً من سورية

قبل 5 أعوام، كان نصيب ألمانيا، من بين أكثر من مليون لاجئ/ مهاجر، الأكبر بين دول القارة، حيث تقدِّر الأرقام الرسمية نحو 1,84 مليون لاجئ، بعضهم بصفة مؤقتة وآخرون بإقامات دائمة. وتُقدَّر أعداد سوريي ألمانيا، القادمين بين 2015 و2016 بنحو 587 ألفاً، يليهم الأفغان بنحو 216 ألفاً، والعراقيون بـ193 ألفاً، بالإضافة إلى جنسيات أخرى. ويشكل هؤلاء اللاجئون نحو 2,2 من مجموع مواطني ألمانيا الاتحادية. في صيف 2015 توقع وزير الداخلية الألماني آنذاك، توماس دي مايزيري، وصول 800 ألف لاجئ إلى بلده. لكن الأعداد فاقت توقعاته، ما أثار أيضاً خليطاً من مشاعر الترحيب باللاجئين، بعد أن ظل رئيس الوزراء المجري أوربان، يغلق الحدود أمام توجههم شمالاً عبر النمسا إلى ألمانيا، ومشاعر قلق من عدم قدرة البلد على استيعاب كل تلك الأعداد ودمجها في سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين الأول 2015.

آلاف على مقاعد الدراسة وقلق على المصير

صحيح أن ألمانيا كانت وجهة الأغلبية من اللاجئين، حيث سجلت وزارة الداخلية في سبتمبر/ أيلول 2015 دخول مئات الآلاف إليها، إلا أن السويد كان لها نصيب ضخم، حيث حلّت ثانياً بنحو 163 ألف لاجئ في الشهر نفسه، ومن خلال العبور عبر الدنمارك، وذلك بحسب أرقام دائرة الهجرة السويدية، ومن بين هؤلاء كان أعداد القادمين من سورية نحو 51 ألفاً.

في استوكهولم كانت حكومة يمين الوسط بزعامة فريدريك راينفيلدت قد دعت في 2014 شعبها إلى أن «يفتحوا قلوبهم عندما يشقّ اللاجئون السوريون طريقهم إلى السويد»، بعد أن كانت الأوضاع المأساوية السورية تُنقَل في وسائل الإعلام.

ومع استمرار التدفق، حيث وصل إليها 163 ألفاً في سبتمبر/ أيلول 2015، ووصول حكومة يسار وسط إلى الحكم، بزعامة ستيفان لوفين، بدأت استوكهولم تتشدد بداية 2016 برفض وصول المزيد عبر حدودها التي أصبحت حتى اليوم مغلقة مع كوبنهاغن. وكجارتها الدنمارك، أوقفت منح الإقامة الدائمة، ووضعت شروطاً تعجيزية للمّ شمل الأسر.

عملية الدمج التي انتهجتها السويد لم تختلف كثيراً عن تلك في ألمانيا والدنمارك. ورغم توجه قطاع كبير من اللاجئين الشبان نحو الدراسة في استوكهولم وكوبنهاغن، وتحقيق نجاحات ملموسة في هذا الاتجاه، إلا أن مسألة الانخراط في المجتمع وسوق العمل ظلت عملية معقدة في البلدين الإسكندينافيين. فالأرقام تشير إلى أنه بعد 5 سنوات لا يزال قسم كبير، ممن هم فوق الثامنة عشرة خارج السوق، وتجري عملية الدمج ببطء.

ففي تقرير إحصائي متخصص، قدمت صحيفة «أفتون بلاديت» السويدية، بمناسبة مرور 5 سنوات على بدء موجات الهجرة الكبيرة، صورة عن واقع عشرات آلاف اللاجئين/ المهاجرين. فمن بين نحو 60 ألفاً نالوا إقامة دائمة، تشير الإحصاءات إلى أن نحو 20 ألفاً هم دون 15 سنة، نحو 10 آلاف باشروا الدراسة في السويد، وأصبحوا يتلقون إعانة الطلاب أسوة بالطلبة السويديين، بحسب أرقام نشرتها «أفتون بلاديت». ويعتبر الشباب السوريون والفلسطينيون-السوريون في مقدمة المتجهين نحو التعليم في السويد والدنمارك، وقد حقق كثيرون منهم خلال سنوات قصيرة نجاحات لفتت انتباه الصحافة المحلية.

رسمياً، بدأت الدنمارك تتشدد في سياسة الهجرة منذ مشهد دخول الآلاف مشياً على الأقدام عبر الطريق السريع مع حدود ألمانيا في 9 سبتمبر/ أيلول 2015، وبدأت بإغلاق الحدود وبتغيير أساليب تعاملها، وباشرت بتطبيق سياسة «الإقامة المؤقتة»، التي تعني أنّ لمّ شمل الأزواج والأطفال لا يحصل قبل مرور 3 سنوات، وبعضهم ينتظر 4 سنوات، مع استيفاء شروط القدرة على إعالة الأسرة. أشاع ذلك إحباطاً بين كثيرين تركوا أسرهم إما في الداخل السوري أو تركيا واليونان، لتجنيبهم مسار لجوء صعب عبر البلقان. وحتى مع تغيّر حكومة يمين الوسط إلى يسار الوسط في العام الماضي 2019، استمرت سياسة التشدد الدنماركي.

فقد أجرت الدنمارك تخفيضاً على قيمة المساعدة في أثناء عملية الدمج، بل وبدل الدمج، صارت تعطي دورات في «العودة إلى الوطن الأصلي»، ما وضع كثيرين عند خط الفقر، بقياس الدنمارك. ولم يستطع البعض خلال 2019 و2020 التخلص من كابوس الحديث عن سياسة «الترحيل»، باشتراط كوبنهاغن منح الإقامة بالعودة في حال تحسن أوضاع البلد الأصلي. وأرسلت في السياق وفدين زارا دمشق وبيروت، لدراسة تحسن الوضع في سورية، خصوصاً دراسة إعادة اللاجئين من دمشق وريفها. وبالفعل، توقفت عملية تمديد الإقامة لبعض اللاجئين السوريين في نهاية 2019، من بين نحو 4700 يحظون بإقامة مؤقتة، حيث يشكو من وصلوا إلى مقاعد الدراسة واندمجوا جيداً من قلق على المصير بعد 5 أعوام لجوء.

ناصر...